

نذاك والا اطلقت ألسنة الغيب (١):

إنّ القعساحة تكون في المعنى وليس للكلمة المفردة كبير قيمة، وكثيراً ما تستعمل اللفظة في موضع فتكون حلوة الجرس حلوة، وتستعمل في موضع آخر لفظاً تلك للزينة، وإنما كان ذلك ولأن المزينة التي من أجلها تصيّف اللفظ في شأننا هذا بأنه أصبح مزينة تحدث بعد أن لا تكون وتظهر في العلم من بعد أن يدخلها النظم. وهذا شيء إن أنت طلبت فيها وقد جئت بها إفراداً لم ترم فيها نظماً ولم تحدث لها تأكيفاً طلبت عملاً. وإذا كان كذلك وجب أن تعلم نظماً أن تلك المزينة في المعنى دون اللفظ (٢).

فالألفاظ عند عبد القاهر لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وإنما تثبت لها القضيّة وخلانها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها وما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ: وما يشهد لذلك أنك ترى للكلمة تروك وتزفك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر كلفظ «الأندع» في بيت الحماسة:

تلفتُ نحو الخي حتى وجدتي وجعت من الأصغاء أيتها وأندعاً (٣)  
بيت البحري:

واني وإن بلغتني حرف الفنى وأحقت من رقى المطامع أندعني  
فإن لها في هذين البيتين ما لا يخفى من الحسن، ثم أنك تتأملها في بيت أبي تمام:  
يادمر قوم من أندعيك قد أصجبت هذا الأتام من خركك  
فوجد لها من القتل على النفس ومن التنقيص والتكبير أضعاف ما وجدت هناك من الروح والنفخة والأيتاس والبهجة.

(١) أسرار البلاغة ص ١٩، وينظر دلائل الإعجاز ص ٤٠١.

(٢) دلائل الإعجاز ص ٣٠٧.

(٣) الإحسان: حرقان في جاني المتى قد غلبها وهطنا، واليت: صلعة المتى.

ومن أعجب ذلك لفظة الشيء، فانك تراها مقبولة حسنة في موضع ونصيفة مستكرمة في موضع، وان اردت أن تعرف ذلك فانظر إلى قول عمر بن أبي ربيعة:

ومن ماليه عينيه من شيء خبيره إذا راح نحو الجمره البيض كالدمي  
ولك قول أبي حبة النعمري:

إذا ما قاضي للره يوم وليلة قاضاه شيء لا يصل القاضيا  
فانك تعرف حسنها ومكانها من القبول، ثم انظر في بيت المتنبي:

لو انك الدوار أبضت سعيه لعوكة شيء عن السلوران  
فانك تراها تفل وتضول بحسب نبلها وحسنا فيما تقدم.

ومن سر هذا الباب أنك ترى اللفظة المستعارة قد استعيرت في عدة مواضع ثم ترى لها في بعض ذلك ملاحظة لانجدها في الباقي، مثال ذلك أنك تنظر إلى لفظة والجسر، في قول أبي تمام:

لا يطمع للره أن يجتأب لجهته بالقول مالم يكن جسرا له العمل  
وقوله:

بصرت بالراحة العظمى فلم ترها تئال إلا على جسر من التائب  
فترى لها في الثاني حسنا لاتراه في الاول، ثم تنظر اليها في قول ربيعة الرقي:

قولي: نعم، ونعم إن قلت واجبة  
قالت: عسى وعسى جسر إلى تعمير

فترى لها لطفًا وخلابة وحسنا ليس الفضل فيه بقليل.

ويتهيء بعد القاهر إلى أن للكلمة لو كانت اذا حسنت من حيث هي لفظ واذا استحقت للزينة والشرف، استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها دون أن يكون السبب في ذلك حال لها مع اخواتها المجاورة لها في النظم لما اختلف بها الحال ولكانت

أما ان تحسن أبدأ أولا تحسن أبدأ . (١)  
ولعل الغرض اللبني كان دائما إلى هذا الرأي، لان كلمات القرآن الكريم هربية نطق بها للشراء والخطباء وتداولها للناس، وليس لها عزية وهي مفردة لا يضمها

(١) دلائل الإعجاز ص ٤٨ ، ٦٢ .